٥ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)

« حديث شريف »

للأستاذ محمد محمود زيتون

هذا هو البارودي أو بالأحرى فلذات من شخصيته العالية الدائبة على طلب التمجيد والتخليد ، وليس ثمة أبعد همة من احتقار اللذة خمرا ومزمارا ، وأسمى مكانة من الاعتماد على النفس في سلوك النهج بغية العزة والتماس الكرامة

والبارودي — والحق يقال — من طراز الأبيوردي الذي من شيمه معالي الأمور ، أما قمة النجم فهي موطئ قدمه ، فكيف برأسه :

الناس من حولي والدهر من خدمي
وقمة النجم عندي موطئ القدم

وللبيان لساني والندى خضل به يدي، والعلا يخلقن من شيمي
لو صيغت الأرض لي دون الورى ذهبا
لم ترضها لمرجي نائل هممي

وعن قليل أرى في مأزق حرج به تشام السريجيات في القمم

ويقول :

عجبت لمن يبقى صداي وقد رأى مساحب ذيلي فوق هام الفراقد
ولي نسب في الحي مال يفاعه رحيب مساري الرمق زاكي المحاتد
ورثنا العلا وهي التي خلقت لنا ونحن خلقنا للعلا والمحامد
أبا فأبا من عبد شمس وهكذا إلى آدم لم ينمنا غير ماجد

ومن العجيب أن العرب في شتى الأعصار والأمصار لم يفارقهم هتاف المجد في الروحات والغدوات ، وما من شيء يحتفلون بذكره في نثرهم وشعرهم أهم عندهم من المعالي

يقول حسان بن ثابت في مدح جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان :

دار لقوم قد أراهم مرة فوق الأعزة عزهم لم ينقل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

ويقول لبيد :

فاقنم بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه فسما إليه كهلها وغلامها

ويقول شاعر في رثاء الأحنف بن قيس :

فما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

ويقول لبيد عند النازلة ، والنجوم والشهب والجبال تراوده :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وكذلك صنع الدين الحلي . وهو يرثي صديقا له غرق بدجلة :

أصفيح ماء أو أديم سماء فيه تغور كواكب الجوزاء
ما كنت أعلم قبل موتك موقنا أن البدور غروبها في الماء

ومنها :

أنف الملاء عليك من لمس الثرى وحلول باطن حفرة ظلماء

ويقول :

حبك الأوطان عجز ظاهر فاغترب تلق عن الأهل بدل
فبمكث الماء يبقى آسنا وسرى البدر به البدر اكتمل

والساعاتي أيضا يذكر المعالي عند الرثاء فيقول :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب
ومزقت شملها من حزنها الكتب

وقال آخر :

كل شيء إذا تناهى تواهى وانتقاص البدور عند التمام

وقال غيره :

كأن الفتى يرقى من العمر سلما إلى أن يجوز الأربعين فينحط

وقال ابن سارة :

لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك
الأعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرهت فراقها الثاويان البدو والحضر

وفى الكرم يقول الشاعر مادحا عمرو الملا هاشم :

عمرو الملا ذو الندى من لا يسابقه
مر السحاب ولا ريح تجـــاريه

وفى الهجاء يقول الحطيئة للزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وفى الحكم يقول الهذلى :

تالله يبقى على الأيام ذو حيد بمشمخر به الظيان والآس

وفى المال يقول الحافظ :

تبا لمن آتاه رب العـــلا مالا ولم يرزقـــه إنفاقه
فالمال كالآل متى لم يكن بين الإنفاق إشراقه

وكان فى العرب رجل اسمه « أنف الناقة » نسبت إليه قبيلته لأنه سيدها وهو جعفر بن قريع ، وكان كل فرد فى هذه القبيلة عرضة للسب والتعيير حتى قال الحطيئة فيهم قوله :

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا المناج وشدوا فوقه الكربا
قوم هـــم الأنف والأذناب غيرهمو
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

عندئذ جعلوا يفخرون ، وإذا سئل أحدهم عن نسبه لم يبدأ إلا بقوله :

ابن أنف الناقة . وقد كان يغضب إذا ذكر

وفى المدح يضع زهير بن أبى سلمى هرم وقومه فوق الشمس :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم بأولهم أو مجـدهم قعـدوا

وقالت بنت لبيد تمدح :

أشم الأنف أصيد عبشميا أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا

وكان الأصمعى وأبو عبيدة يقولان « عدى بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها مجراها .. » وعدى هذا هو القائل :

نحن كنا قد علمتم قبلكم عمد البيت وأوتاد الإسار

ويقول ذو الإصبع يرثى قومه :

لم كانت أعالى الأرض فالسفلان فالعرض
إلى ما حازه الحزن فما أسهل المحض
إلى الكثفين من نخلة فالدارين فالعرض
لهم كان جمام الماء لا المرحى والبرض
فمن ساجلهم حربا ففى الخيبة والخفض
وهم نالوا على الشنآن والشحناء والبغض
معالى لم ينلها الناس فى بسط ولا قبض

وقال محمد بن وهب الحميرى :

ولما رأى الله الخلافة قد وهت دعائمها والله بالأمر خابر
بنى بك أركانا عليها محيطة فأنت لها دون الحوادث ساتر
وأرعن فيه للسوابغ جنة وسقف سماء أنشأته الحوافر
لها فلك فيه الأسنة أنجم ونقع المنايا مستطير وثائر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا لما انتميت إلا إليك المفاخر

وقال شاعر قديم :

فلال مجد فرعت آصاتها وعزة قعساء لن تناصى

وقال يزيد بن الطثرية :

عدت من عليه تنفض الطل بعدما
رأت حاجب الشمس استوى فترفقا

وقال أحدهم يصف حديقة :

ترفعت عن ندى الأعماق وانحدرت
عن المناطن فاستغنت بعسقاها
فاهتز بالبقل والريحان أسفلها واعتم بالنخل والرمان أعلاها
أيا معاوية اشكر فضل واهبها وكلما جئتها فاعمر مصلاها

وقال البلوى فى وصف بيت :

وقد حلوا أعاليه بتبر وقد بسطوا أسافله رخاما
وقد جعلوا له بابا وقفلا وحلوا بابه ورقا وساما

وقال آخر :

فاستنزلوا أهل (جو) [1] من منازلهم
وهدموا شاخص البنيان فانتسفا

وقال حسان يهجو نوفل بن الحارث :

(١) أهل جو هم أهل اليمامة

وما ولدت أبناء زهرة منهمو صميما ولم يلحق محاتزك المجد

والبهاء زهير يقول :

على الطائر الميمون يا خير قادم وأهلا وسهلا بالعلا والمكارم

ويقول ابن سناء الملك :

وما أنا راض أنني واطئ الثرى ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا

ولو علمت زهر النجوم مكاني لخرت جميعا نحو وجهي سجدا

ويقول صفي الدين الحلي :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

وفي وصف الفرس يقول الثعالبي :

يأيها الملك العزيز ومن له شرف يجر على النجوم ذوائبا

أصلحت بين العالمين بهمة تذر الأجانب بالوفود أقاربا

ويقول مهيار الديلمي :

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أب مثل أبي

وتقول هند بنت طارق في النسوة يوم أحد وهن يضربن الدفوف والمعازف :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

والطارق هو النجم الذي هو زحل ، فهي تقول نحن بنات من بلغ العلو وارتفاع القدر كالطارق ، وما أدراك ما الطارق : النجم الثاقب

وأنشد أبو بكر الأيادي لامرأة من العرب عن عنها زوجها :

فقدتك من بعل علام تدكني بصدرك لا تفنى فتيلا ولا تملى

ويقول شاعر ارتفع بأمانيه للناس فوق ما يتمنى الناس :

سق الله أرض العاشقين بغيثه ورد إلى الأوطان كل غريب

وأعطى ذوي الهيئات فوق مناهمو ومتع محبوبا بقرب حبيب

هذه شوارد كلها شواهد على أن الشعراء العرب لم يكونوا يتمنى من المعالي مادية وروحية في كل ما تتفتق به قرائحهم ، وهذه ظاهرة قلما توجد في الآداب الأخرى على هذا النحو من التنويع والتوزيع . وصدق ابن قتيبة حين يقول :

« . . ويقال ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجاري ، والشرف العالي ، والمكان الخصر العالي »

نستطيع أن نقول في أمان وأمانة إن الروح العربية كانت مجالا لتوليد هذه المعاني ، ونشدان تلك المعالي ، حتى إذا جاء الإسلام كانت منه في موضع الرعاية والتقدير ، ولا سيما فيما يرفع المجتمع إلى أسمى الدرجات الإنسانية ، وذلك يؤدي حتما إلى انعكاس المعالي الاجتماعية على النفس المفردة ، فكان الإسلام أشبه بالبؤرة من العدسة اللاقطة العاكسة مما : تلتقط ما دون الصبية المقوتة ، وتحتفظ بالمفاخر لتتسلط إشعاعاتها على نفوس المؤمنين بهذه الرسالة الجديدة التي يدعو إليها محمد وهو من أواسط العرب وأشرفهم محتدا وفعالا

والله تعالى هو العلي العظيم المتعالي العالي الأعلى ذو العلا والعلا والمعالي . وصفة الله العليا هي شهادة ألا إله إلا الله

محمد محمود زيتون

رفائيل

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمي الواقعي

لشاعر فرنسا الخالد « لامرتين »

قص فيها بأسلوبه الشعري تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب ... وهي كآلام « فرتر » في دقة الترجمة وقوة الأسلوب ... طبعت أربع مرات وثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد